ولاد الحرام مخلوش لولاد الحلال حاجة!

سار (عامر) يصحبه ولده الصغير... تتنافس الفرحتان... فرحة الوالد بولده، وفرحة الولد بوالده... تتعانق الفرحتان... يقتسمها قلباهما...

كم كان (عامر) سعيدًا وهو يمسك بفرحة عمره وقد تجسَّدت طفلًا يكبر يومًا بعد يوم وتكبر معه آماله فيه! وكم كانت فرحة الطفل وهو يمسك يدَ أبيه سنده وحمايته!

كان الأبُ في طريقه لزيارة أحدِ أقاربه في واجبٍ اجتماعيٍّ تحتمه الظروف... والطفل فرحٌ بالنزهة التي تتكرر على فترات متباعدة... سارا في طريقهما... خطواتٍ قصيرة متعجلة على إثر خطواتٍ طويلةٍ واثقةٍ... مفروشة بضحكات طفولته الغضَّة، وبسمات الرضا التى تملأ قلب الأب وتفيض على شفتيه...

وفجأة قطعت ابتسامةَ الطفل صورةٌ اعتاد الأبُ أن يراها، لكنها اغتالت أحلام الطفل الذي لم يسبق له أن رأى من العالم إلَّا وجهه المضيء... متسوِّل بدت عليه آثار القذارة، والقبح، والإهمال يستجدي

الناس عطاءهم... يسوق لهم من المبررات ما يمزِّق به قلوبهم ويستدرُّ عطفهم:

- أنا مسافر وجاي من مكان بعيد... عايز أرجع بلدنا والفلوس اتسرقت... طمعان في كرمكم يا أهل الخير ربنا يخلف عليكم بالحلال...

داعبت تلك الكلمات المؤثرة المختلطة بهيئة "تقطَّع القلب" قلبَ الصغير... طلب من الأبِ أن يعطيه مالًا يسدُّ به حاجته... وقف الأبُ مبهوتًا فما أكثر ما رأى هذا الرجل وأمثاله يتسوَّلون بحججٍ شتَّى! لكن كيف سيبرِّر لصغيره إحجامه عن مساعدة الغير؟!

وأمام إصرار الصغير أخرج الأبُ عددًا قليلًا من الأوراق المالية من جيب سترته... تأملها ووازن بينها ليختار ما يصلح لتلك المهمة التي يفتقر فيها إلى الحماس... كان الطفل على صغره خبيرًا بتلك الأوراق يعرفها جيدًا، فعقول الأطفال تستوعب اليوم ما نستوعبه ونحن في سنِّ الشباب... أشار الابنُ إلى الورقة الكبيرة... ذكَّر الأبَ بقيمة الصدقة وفضلها عند الله:

- بابا! أبلة علمتنا في المدرسة أن الحسنة بعشر أمثالها... يعني كل جنيه نقدِّمه للفقير ربنا يدينا بيه عشرة جنيه، ويبني لنا قصر في الجنة...

ألحَّ الابنُ على الأبِ وأكثر الإلحاح... وأمام سعادة الأبِ بما تعلمه الابن ورغبته في عمل الخير لم يتردد في إخراج أكبر أوراقه المالية رغم حاجته

الشديدة إليها، فالشهر لم يزل في منتصفه، والمرتب قارب على النفاد، ومصاريف البيت لا تتوقف...

اختطف الصغير الورقة المالية ذات العشرين جنيهًا من يد الأب ليقطع عليه تردده، ثم قفز خطواتٍ متلاحقة يطير كالفراشة حتى دنا من الشحَّاذ فأعطاه في يده المال... ثم عاد إلى الأب يقول:

- الأبلة في المدرسة بتقول إن الواحد لَّما يقدِّم صدقة لفقير بياخد حسنات... اللي قدِّم بإيديه واللي خدها منه... يعني أنا وانتَ ربنا هيكتب لنا حسنات كتير...

نسي الأبُ احتياجه للمال أمام هذه الكلمات الجميلة واكتفى بقوله:

- ربنا يفتح عليك يا بني!

واحتضن الأبُ ابنه وقبَّله... وكانت سعادته به لا تقدَّر بمال... وإن هي إلا لحظات حتى وصل الرجلُ وصغيره إلى قريبه لزيارته والاطمئنان عليه، وأمضى عنده ساعات النهار وبعضًا من الليل، ثم قفل عائدًا يتبعه الصغير وإذ به يرى نفس الرجل في نفس الموضع وقد ساق للتسوُّل مبرِّرًا جديدًا:

- أنا مريض وعندي فشل كلوي وبصرف على ولاد كتير تعبانين وست عاجزة... يا أهل الخير! ينوبكوا ثواب!

خاطب الصغير أباه متعجِّبًا:

- بابا هو الراجل ده مش كان عايز فلوس يسافر بيها؟! أُمَّال إيه اللي عيَّان وعياله تعبانين؟! هي الفلوس اللي خدها ما كفتش علشان ترجَّعه بلده؟!

لم يشأ الأبُ أن يفجع براءة الطفل ويكشف مكرَ مثل هذا الرجل وخداعه فلم يُعَلِّقْ واستحثَّ ابنه على السير بحجة تأخرهم وقلقل ماما عليهما...

حمد الله أن البيت ليس عنهما ببعيد، وإلَّا فكيف كان سيعود بصغيره بعد نفاد ما معه؟! أشفق على الصغير من المشي بعد أن بدأت أقدامه تكلُّ والنعاس يتسلل إلى عينيه، فحمله وسار به متثاقلًا، وقد استسلم للنوم بين ذراعيه... سار أمتارًا طويلة حتى لاح منزله أمام عينيه... لم يعد يفصل (عامر) عنه إلا الطريق الرئيس فطفق يجتازه مجهدًا وما كاد يعبره حتى صادف شابًّا بادر إليه يسأله:

- هيَّ "العباسية" في الاتجاه ده؟! - وأشار الفتى على امتداد ذراعه- يعني أنا ماشي كده صح؟!

التقت عينا (عامر) بعيني الشاب... أحسَّ في نظراته بالحاجة، لكن منعته عفَّته عن المسألة...

أجابه (عامر) وهو يتحسَّس جيب سترته الذي أصبح خاليًا:

- أيوه... بس "العباسية" بعيد... إحنا في "الزيتون"!

شكره الشاب وهمَّ مسرعًا يجتاز طريقه حتى غاب عن عينيه...

حزن (عامر) لأنَّه لم يقدِّم له ما يعينه على طريقه الطويل، ولام نفسه:

"كنت هخسر إيه لو إدِّيته جنيه ولا اتنين يركب بيها "مترو" أو "أتوبيس"؟!"

لم يعد معه ما يتصدَّق به... ذهب المتسوِّل إيَّاه بجميع ما معه! وقال في نفسه كلمات أخرجها الغيظ من بين شفتيه وهو يجزُّ عليها حنقًا:

"ولاد الحرام ماخلوش لولاد الحلال حاجة!"...

حمد الله أن صغيره ما زال بين يديه نائمًا، وإلَّا كان سيسأله عن هذا الكلام... كيف كان سيشرح له معناه؟!

ثم عاد يستطرد في نفسه قائلًا:

- لزومه إيه الشرح؟! بكره يعيش والدنيا يا ما هتورِّيه... الدنيا أكبر مُعَلِّم!

*****